

«هآرتس» الجدل التاريخي حول باب الرحمة



23 مارس 2019 - 07:35

بقلم: نير حسون

في نيسان 1969 وبعد ليلة مطيرة وصل الباحث الأمريكي، جيمس فلمينغ، من أجل التحقيق في البوابة المغلقة الموجودة في سور البلدة القديمة في القدس. وقد سار بمحاذاة البوابة من الجانب الخارجي المتوجه الى المقبرة الإسلامية. فجأة انشقت الأرض تحت أقدامه وسقط في بئر كبيرة. «كنت مشوشا، ولكنني لم أصب بأذى»، كتب في مقال في مجلة «بار». «نهضت وحاولت تركيز نظري على الضوء الضبابي الذي انبثق من الفتحة التي تقع فوق رأسي. فجأة فهمت أنني أقف داخل كومة من العظام لـ 30 أو 40 شخصا على ما يبدو ألقيت معا الى قبر جماعي. جزء من العظام كان ما يزال مرتبطا بغضاريف، الأمر الذي يشير الى أنها دفنت في المئة سنة الأخيرة.

قدر فلمينغ أن العظام كانت مرتبطة بأحدى موجات العنف التي اجتاحت الشرق الأوسط في المئة سنة التي سبقت زيارته: الحرب العالمية الأولى، التمرد العربي، أو «حرب الاستقلال». في اليوم التالي عندما عاد الى المكان كانت البئر مغلقة ثانية. ولكن قبل خروجه من البئر نظر مرة أخرى حوله، ولاحظ قوسا قديما، حسب تقديره يرتبط بالبوابة السابقة التي كانت توجد في المكان قبل بناء باب الرحمة، كما نعرفه اليوم. لغز الهياكل العظمية لم يحل حتى الآن، وسيحول القوس إلى جزء من النقاش الواسع بين رجال الآثار، باحثي الفنون، ومؤرخين في أحد المباني التاريخية الغامضة جدا في البلدة القديمة - باب الرحمة.

باب الرحمة وبيت البوابة الملاصق له - المعروف مؤخرا باسمه العربي باب الرحمة - صعد الى العناوين في أعقاب مواجهة بين الأوقاف وشرطة إسرائيل على بيت البوابة. قامت الأوقاف بفتح مبنى باب الرحمة بخطوة أحادية الجانب، قبل شهر تقريبا، ومنذ ذلك الحين يتم استخدامه للصلاة. الشرطة من ناحيتها اعتقلت حراس الأوقاف، وأبعدت عشرات الأشخاص عن الحرم، وأصدرت أمر إغلاق للموقع. «أمناء جبل الهيكل» ومنظمات يمينية تطلب من الحكومة إغلاق المبنى. المصلون المسلمون يرفضون أي اقتراح للتسوية، وحكومتا الأردن وإسرائيل تحاولان إيجاد حل متفق عليه للزامة.

هذه المواجهة ليست المواجهة الأولى على باب الرحمة. لا ينجح الباحثون في التوصل الى اتفاق بشأن أي مسألة من المسائل المهمة لتاريخ هذا المبنى: من قام ببنائه ومتى ولماذا هو مغلق ولماذا استخدم طوال هذه السنين؟ فعليا ضبابية البوابة ترتبط أيضا بالدور الذي أعد لها في يوم القيامة حسب الديانات الثلاث. ولكن بشكل خاص اليهودية والإسلام.

الصليب المقدس

المقاربة المقبولة لدى معظم الباحثين تربط بين البوابة وبين باقي المباني السابقة في الحرم، التي تنسبها الى نشاطات البناء للحكام الأمويين، الحكام المسلمين المهمين الذين

بنوا القدس والمساجد في الحرم في نهاية القرن السابع. آخرون قالوا إن من بناها هو القيصر البيزنطي هرقل في بداية القرن السابع. الادعاءات بشأن نسبها للفترة الإسلامية ترتكز إلى أنه حسب كل الدلائل اهتم الحكام البيزنطيون جدا بالقدس، لكن ليس بالحرم. إبقاء الحرم على انقاضه كان جزءا مهما في العقيدة المسيحية للبيزنطيين؛ لأن هذا يعتبر دلالة على انتصار المسيحية على اليهودية.

«الخراب هو دلالة على الهزيمة، وكانت لهم مصلحة في إبقاء الحرم مهجورا»، قالت البروفيسورة رينا تلغان من الجامعة العبرية، الباحثة في تاريخ الفن في الشرق الأوسط. حسب أقوالها «هناك فترتان كبيرتان في الحرم، الهيروديتية والأموية. الأمويون أحيانا ضلوا لأنهم استخدموا استخداما ثانويا عناصر هندسة معمارية بيزنطية. ولكن هنا لا نرى أي دليل على هذا الاستخدام الثانوي. العناوين ليست بيزنطية بل أموية قديمة تناسب القرن السابع». هذا الموقف تؤيده أيضا شولاميت غارا، التي كتبت رسالة الدكتوراة عن البوابة. عالم الآثار، مثير بن دوف، ومعظم الباحثين في الحرم يؤيدون ذلك أيضا. حقيقة أن البيزنطيين لم يبناو أي شيء في الحرم وتشابه البوابة مع المباني الأخرى في الحرم تعزز مقارنة المعسكر الأموي في النقاش.

ولكن عالم الآثار، البروفيسور دان باهت، من أهم الباحثين في موضوع القدس، اقترح تفسيراً آخر يعطي أيضا علاقة تاريخية محددة بالبوابة. الدليل الأول لباهت هو موقع البوابة الذي يوجد في مكان غير منطقي بالنسبة لباقي المباني في الحرم، بعيدا عن المحور الذي يؤدي إلى قبة الصخرة. لذلك، يعتقد باهت أنه من غير المعقول أن من بنى الحرم كان سيبنى البوابة بالضبط في هذا المكان. في المقابل، بنظرة إلى الغرب نرى أن البوابة توجد في محور واحد مع مبنى مهم آخر في البلدة القديمة وهو كنيسة القيامة. باب الرحمة، حسب باهت، بني على أيدي البيزنطيين الذين سبقوا الأمويين، وفعلوا ذلك لهدف مهم وهو أن يعيدوا إلى المدينة الصليب المقدس. في العام 614 احتل الفرس القدس، والصليب المقدس - الذي صلب المسيح عليه حسب المعتقدات - سقط سبياً وأخذ إلى بلاد الفرس. بعد 15 سنة في العام 629 قاد القيصر هرقل الجيش البيزنطي إلى انتصار على الفرس، ووضع يده على الصليب. هيركوليس، كما هو موق في عدد كبير من الأيقونات المسيحية، أعاد الصليب في مسيرة كبيرة إلى كنيسة القيامة في القدس.

ولكن باهت يريد التوضيح بأنه لم يفعل ذلك فوراً في نهاية المعارك: «في البداية أخذ الصليب في مسيرة كبيرة إلى القسطنطينية، في 14 ايلول 629 - حتى الآن هذا يوم تمجيد الصليب. فقط في آذار 630 احضر الصليب إلى القدس. هذا يعني أنه كان لديه أكثر من نصف سنة لبناء البوابة. ربما أنه لم يستكمل بناءها، لكن من الواضح أنه بدأ في بنائها». حسب التراث كان من المهم لهيركوليس ادخال الصليب إلى القدس عبر بوابة شرقية، تشبه المسار الذي سار به المسيح عندما دخل إلى المدينة عشية موته. هذا أيضا يفسر لماذا توجد البوابة في خط مباشر مع الكنيسة. «المقاسات بيزنطية، النقوش بيزنطية، والسبب الوحيد لبنائها هو بيزنطي»، قال باهت، «في كل الفترات الإسلامية كانت مغلقة، ولكن هل هي إسلامية؟ كيف يمكن أن يكون ذلك؟».

الطريق أغلقت

النقاش حول تاريخ البوابة يطرح سؤالاً آخر: ما هو هذا القوس الذي شاهده فلمينغ في اليوم الذي سقط فيه في حفرة العظام؟ حسب عدد من الباحثين يتعلق الأمر ببقايا بوابة قديمة، ربما تعود لعهد «الهيكل الثاني». يعتقد باهت أن الأمر يتعلق بجزء من مبنى أساسات البوابة البيزنطية. سؤال آخر يحتاج إلى الإجابة هو متى ولماذا أغلقت البوابة؟ إذا كانت حقاً بيزنطية، ربما أغلقت من قبل الأمويين كجزء من بناء مجمل الحرم في القرن السابع. تفسير آخر هو أنه خلال العهد الإسلامي تحول المكان ليكون مقدساً والمقبرة التي توجد قربه حظيت بالشعبية، والطريق إلى البوابة ببساطة أغلقت بالقبور إلى درجة أنه لم يكن هناك مبرر لفتحها.

تفسير ثالث يتعلق بأن الحكام المسلمين أرادوا تعزيز المدينة التي تقع غرب الحرم، لذلك اغلقوا البوابة من أجل إجبار المؤمنين الذين جاؤوا للصلاة في المسجد الأقصى بأن يمشوا عبر المدينة في الطريق إلى المسجد. تفسير رابع يطرحه باهت يرتبط بقرار الحاكم الملك المعظم عيسى، ابن شقيق صلاح الدين، في العام 1227، هدم تحصينات القدس، حيث خشي من عودة الصليبيين واحتلال المدينة، وأراد منعهم من السيطرة عليها.

مهما كان الأمر من الواضح أنه خلال معظم التاريخ بقيت البوابة مغلقة، الأمر الذي ساهم في دورها في أسطورة يوم استقبال المسيح حسب اليهودية، أو استقبال المؤمنين المسلمين الذين سيديرون على الصراط المستقيم من جبل الزيتون إلى الحرم، حيث ستكون جهنم تحته. إن اسم باب الرحمة التصق بهذا المكان بالعربية والعربية في نهاية القرن العاشر. «ليس من الواضح من نسخ عن الآخر»، قال باهت. في النقاش في الأشهر الأخيرة حول البوابة طرح سؤال آخر وهو في أي شيء استخدم مبنى البوابة الكبير طوال السنين؟ أمعاء «جبل الهيكل» وحركات اليمين يدعون مؤخرًا بتشدد أن المبنى لم يستخدم في أي يوم كمسجد. «في الـ 1400 سنة الأخيرة لم يكن أي مسجد، والمسلمون لم يقولوا في أي يوم بأن هذه منطقة مقدسة سوى في الشهر الأخير»، قال شخص من حركة «رغميم»، يخين زيك، في فيلم قصير نشرته الحركة، هذا الأسبوع. قدمت

«رغميم» التماسا للمحكمة العليا طلبت فيه إجبار الدولة على إغلاق المبنى. وفي الالتماس تكرر الادعاء بأن المبنى لم يستخدم كمسجد في أي يوم. ولكن المصادر التاريخية تشير إلى واقع آخر. الباحث في الشؤون الإسلامية، البروفيسور عميكام العاد، قال إنه كان للبوابة بالضبط مكانة مهمة في التراث الإسلامي السابق المرتبط بيوم الأخرى. جزء منها متأثر بالتراث اليهودي. كما توجد شهادات على وجود مدرسة إسلامية مهمة جدا عملت في المكان في القرن الحادي عشر. بعد ذلك، في القرن الرابع عشر وصف عالم الجغرافيا الأب العمري، الذي زار القدس، مسجدا نشيطا في المكان (بترجمة اوري طل): «طوله من الشرق إلى الغرب 30 ذراعا وعرضه من الجنوب إلى الشمال 14.5 ذراع. وله محراب مساحته 3.25 ذراع، ويصلي فيه إمام خاص بالمسجد. هذا المسجد يمتد على بوابتين تسميان باب الرحمة.